

اختلفت آراء علماء العربية قدامى و محدثين) في نظرتهن إلى العربية المشتركة ولهجاتها: فقد ذهب القدامى إلى أن العربية المشتركة هي لغة قريش ذلك أن قريشا في نظرهم أفصح العرب وأصفاهم لغة، لأنهم كانوا يسكنون جوار البيت العتيق فمنهم هذا الجوار سلطة روحية وأدبية، وكانت الوفود تأتيهم من مختلف القبائل العربية فيختارون من ألسنتها ما وافق طباعهم، وما أحسوا أنه صورة راقية من صور الفصحى، ويجتنبون الظواهر المسقة في هذه اللهجات فجاءت لغتهم خالصة من الأوشاب اللهجية، يقول أبو الحسين أحمد بن فارس (ت: 941م): "أجمع علماءنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة. وذلك أن الله - جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمدا صلى الله عليه وسلم فجعل قريشا قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته . . . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب". ونقل السيوطي (ت: 911م) عن أبي نصر الفارابي قوله: (كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما في النفس). كما نقل عن الفراء (ت: 822م) قوله في هذا الشأن: "كانت العرب تحضر الموسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسّنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ. تلك جملة من أقوال القدماء تجمع على فصاحة قريش وعلو المنزلة التي رفعت إليها لهجتهم بفضل ما تجمع لديها من رقة اللسان وبعد عن الألفاظ الموحشة وبفضل ما اختارته من لهجات القبائل. أما تأثير لهجة قريش بغيرها من لهجات القبائل نتيجة هذا الاتصال المستمر فأمر مسلم به في الدراسات اللغوية الحديثة حيث إن احتكاك اللهجات بعضها ببعض يقرب الشقة فيما بينها ويذيب الفوارق اللهجية، ويؤدي في النهاية إلى أن تتغلب إحدى هذه اللهجات على شقيقتها متى أتيحت لها الظروف، كما يؤدي إلى أن تترك هذه اللهجات بصماتها في اللهجة الغالبة، لكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن نوافق القدماء على اندفاعهم في كلمتهم بأن لهجة قريش أفصح اللهجات العربية إذ أن المفاضلة بين اللهجات لا تتفق مع وجهة النظر اللغوية الحديثة. هذا وقد تبع فريق من المحدثين علماء العربية القدامى في نهجهم فوضع لهجة قريش في المنزلة العالية، وجعل لها السيادة على غيرها من اللهجات العربية بفضل ما أتيح لأهلها من ثقافة وجاه وسلطان وما انتقل إليها من عناصر لغوية زادت ثراء فهي عندهم اللغة الفصحى التي نظم بها الشعر وألقيت الخطب في المحافل والمجتمعات، وهي عندهم لغة القرآن والحديث والآثار الدينية والأدبية والعلمية. وممن سار في هذا الاتجاه الدكتور علي عبد الواحد وافي إذ يقول في معرض كلامه عن تغلب لهجة قريش في اتصالها مع اللهجات العربية: هذا إلى أن لهجة قريش كانت أوسع اللهجات العربية ثروة وأغزرها مادة وأرقها أسلوبا، وأدناها إلى الكمال وأقدرها على التعبير في مختلف فنون القول وقد تم لها ذلك بفضل ما أتيح لأهلها من وسائل الثقافة والنهوض، وما أتيح لها من فرص كثيرة للاحتكاك بمختلف اللهجات العربية، وما انتقل إليها من هذه اللهجات من عناصر زادت ثروة وسدت ما كان يعوزها في بعض مناحي التعبير إلى أن يقول: "وهذا هو ما حدث للغة قريش فقد ترتب على تغلبها على بقية اللهجات العربية أن أصبحت لغة الآداب عند جميع قبائل العرب، ويتبارى الأدباء، وتجري المناقشة في النوادي والمؤتمرات في مختلف بلاد العرب ومختلف قبائلهم وقد تم لها ذلك قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم بزمان غير قصير". ويسلك الدكتور حسن عون طريقا مماثلا فيقول: . . . وهي التي أورتنا هذه الآثار الدينية والأدبية والعلمية، وهي أيضا لغة القرآن والحديث والأدب العربي". ونحن لا نستطيع أن نركن إلى مثل هذه الأقوال التي تجعل لهجة قريش وحدها لغة القرآن والحديث والآداب فقد سبق أن ألمحنا قبل سطور في حديثنا عن نشأة اللغات المشتركة بأن هذه اللغات وإن قامت في بدء نشأتها على أساس لهجة سادت غيرها لأسباب اجتماعية واقتصادية وثقافية، إلا أنها تصبح مع الزمن ملكا للجميع، وينسى الناس جذورها الأولى، ولا تعود تذكرنا عند سماعها بمنطقة معينة أو بيئة محلية واحدة، ذلك أنها عندما يتاح لها أن تنتشر بين الجماعات اللغوية الأخرى تأخذ العناصر المشتركة التي تدخل في تكوينها في الازدياد، وكلما ازدادت انتشارا كثرت الصفات التي تستعيرها من صور اللهجات المحلية. وهكذا فإن اللغة العربية المشتركة وإن قامت في بداية نشأتها على أساس لهجة قريش إلا أنها أخذت على مر السنين خصائص لغوية من قبائل عربية مختلفة نتيجة اتصال قريش بهذه القبائل في مناسبات عديدة، فلم تعد اللغة المشتركة لهجة قريش وحدها بل هي مزيج منسجم من اللهجات العربية، ولنضرب في هذا المقام مثلا توضيحيا فنقول من الحقائق المعروفة في دراسة اللهجات العربية القديمة أن ظاهرة - النبر أي تحقيق - الهمز من الخصائص البدوية التي اشتهرت بها قبائل وسط الجزيرة وشرقيها (تميم وما جاورها) وأن عدم النبر أي تسهيل الهمز أو تخفيفه - صفة حضرية امتازت بها لهجة القبائل في شمال الجزيرة وغربيها (قريش وما جاورها

من القبائل الحجازية). وقد أكد ذلك ابن منظور في الرواية التي أوردها فقال : قال أبو زيد: أهل الحجاز وهذيل، وأهل مكة والمدينة لا ينبرون وقف علينا عيسى بن عمر فقال: ما أخذ من قولتميم إلا بالنبر وهم أصحاب النبر، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا". قال : "وقال أبو عمر الهذلي : قد توضيت فلم يهمز وحولها ياء وكذلك ما أشبه هذا من باب الهمز"25. يفهم من العبارة السابقة أن لهجة تميم تحقيق الهمز ولهجة قريش تسهيلها، وقد أخذت العربية المشتركة تحقيق الهمز من تميم، وأصبح الخاصة من العرب مهما اختلفت قبائلهم يلتزمون تحقيق الهمز في الأسلوب الجدي من القول من شعر أو خطابة أو نثر حتى القبائل الحجازية، فهي وإن كانت في لهجات الخطاب تسهل الهمز إلا أنها التزمت تحقيقه في الأساليب الأدبية، وهذا هو ما أشارت إليه الرواية وقولها: (وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا". وقد عقب الدكتور إبراهيم أنيس على هذه الرواية بقوله : فليس لهذا الاضطرار من معنى سوى أنهم كانوا يهزمون حين يلجأون إلى اللغة النموذجية وفي المجال الجدي من القول وخلاصة ما تقدم أن الذين ذهبوا من المحدثين إلى أن لهجة قريش هي اللغة العربية المشتركة قد جانبهم الصواب فيما ذهبوا إليه،